فكرة رحلة الروح الخيالية عند المعري وإقبال

(في ضوء قصة المعراج المستقاة من القران الكريم)

☆ الدكتور محمد ابو ذرخليل

☆ الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بهاء الدين زكريا، ملتان

ABSTRACT

Imaginary/Utopian Journey of Soul an imaginary journey of soul as accentuation to the world of Utopia or the world here after, this is a sort of visionary journey shared by the humanity at large right from ancient ages. It had been the heritage of various nations according to their regions perception and beliefs.

The event of Escentuation (معـــــــراج) of the Holy Prophet (PBUH) is considered to be the Role Model / Precedent by the Muslim Sufi Scholars. Since this religious experience is of highly significance, thereby the Sufi Scholars holding the theory of pantheism are inclined to interpret this spiritual journey towards the ultimate destination of annihilation and union with Almighty Allah like a drop of water that annihilates itself in the occasion and becomes one with the whole.

Iqbal disregard to the popular view of the Sufi Scholars, opines that the accentuation is not total diminishing but rahterely it is a path leading to everlasting life. Iqbal expressed with view in his book (جـاويد نـامـه) i.e.(رسـالة الخلود)In this regard al-Muarri (1057) is one of the scholars who in his(رسالة الغفران) discussed the same topic in length.

This article deals with the critical study of the both authors with reference to their books, pointing out the various commonalities and the thoughts resulted therein.

اسسٹنٹ پروفیسر شعبہ عربی، بہاؤالدین ذکریا یونیورسٹی، ملتان

المعرى وإقبال بين السطور

أولاً: أبو العلاء المعري:

ولد أبو العلاء المعري في معرة النعمان سنة ٣٦٣ه/٩٧٣م. وفقد بصره في طفولته، ومع ذلك سعى في طلب العلم وطاف في البلاد من مدينة إلى مدينة وفي سنة١٠٠٦ توجه إلى بغداد واختلف إلى دور العلم، ولكنه لم يحظ بمبتغاه، فرجع إلى المعرة و اعتزل الناس وظل كذلك إلى أن توفي سنة ٤٤٩ه/١٠٥٧م.(1)

وقد اتفق القدماء على سعة علمه ولكنهم تنا قضوا في المواقف من عقيدته، فهو ملحد، زنديق، كافر، عند فريق (ابن كثير.ابن عقيل.العيني، ابن الجوزي)! وهو ناسك، ورع، زاهد، عابد (ابن العديم.أبواليسر المعري، العباسي المكي) ويعده الإمام الغزالي وليا من اولياء الله الصالحين.

ثانيا: محمد إقبال:

ولد محمد إقبال بالهند عام ١٨٧٧م، وتلقى منذ صغره تربية إسلامية، ثم حصل على ليسانس الآداب من (كلية الحكومة) في مدينة لاهور، ودرس بجامعة لندن ثلاث سنوات لكنه حصل على الدكتوراه في الفلسفة من ألمانيا سنة ١٩٠٧م، عاد إلى وطنه حيث بدأ يؤسس دعوته الإصلاحية التى استمد عناصرها من الإسلام، واستخدم كلامن الشعر والنثر. فنظم العديد من الدواوين باللغتين الفارسية والأردية، كما نشر بعض الكتب بالإنجليزية أهمها كتاب (تجديد التفكير الدينى في الإسلام) وكان صاحب فكرة إنشاء وطن مستقل للمسلمين في شبه القارة الهندية، وهو الوطن الذي تحقق بإنشاء دولة باكستان الإسلامية. وبعد حياة حافلة بالجهاد والفكر والإبداع. توفي في إبريل سنة ١٩٣٨م.(2)

فالأول منهما يراوح بين الحيرة والشك ويسيطر التشاؤم على آراء ه، وان في

تفكيره حيرة وتناقضاً واضطرابا.

وأما الثاني فنجد عنده التفاؤل، ويغلب في تفكيره وآراءه الرجاء واليقين.

خلفية تأريخية لفكرة رحلة الروح الخيالته:

فكرة إنسانية قديمة مشتركه:

يمكننا أن نقول بأن أبا العلاء المعري لم يكن أول من تناول موضوع السفر إلى العالم الآخر، بل تناوله العديد من الثقافات منذ أقدم العصور، كالثقافة المصرية القديمة والهندية والبابلية والآشورية والفارشية واليونانية.

هذا ويزخر التراث الإسلامي لصور متنوعة عن العالم الآخر، ويذكر القرآن والحديث وكتب التفسير وفقهاء الإسلام وعلماؤه ومتصوفوه وأدباؤه نماذج شتى عن هذا العالم، العالم الآخر: مثل ماورد في بعض حكايات(الف ليلة وليلة). وهذه الفكرة تناولتها كل الآداب الراقية، على شكل رحلة إلى عالم الأرواح أوإلى العالم الآخر بصفة عامة.(3)

وتقول الدكتورة بنت الشا طئى عن تأثر (دانتے) عن المعري في هذه الفكرة: ماإذا كان يجوز لنا أن ندعيلأبي العلاء فضل السبق في الحديث عن (العالم الآخر) أوأنها فكرة إنسانية عامة سبقت أبا العلاء، بل سبقت تراث الشعروالنثر جميعا.

وتقول: إذا نظرنا إلى رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، وجدناهما تلتقيان عند: فكرة (الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر) لكن من الذي يجرؤ على الادعاء بأن أباالعلاء صاحب هذه الفكرة؟ إنها فكرة إنسانية مشتركةفمنذ سمعت البشرية أن هناك عالما آخر، راحت تتمثل ذلك العالم وتتصوره، وتمضى مع أحلامها ورؤاها في رحلات خيالية إليه.

وتصوير ذلك العالم قديم العهد، عرضته الأديان عرضا مفصلا لايدع لنا سبيلا إلى إيثار أبي العلاء به.وحدثت الأساطير قبل أن يولدأبوالعلاء بدهور متطاولة(4).

فكرة رحلة الروح في الآداب العالمية:

لو تصفحنا تأريخ آداب العالم قديما وحديثا لوجدنا جزور هذه الفكرة لدى الجميع ولو بأشكال متعددة وألوان مختلفة، وذلك بسبب الخلاف في العادات والتقاليد البيئات المحلية، كما قلنا في سالف الذكر بأنها فكرة قديمة مشتركة بين الإنسانية جمعاء.

يقول الدكتور رجاء جبر: ولوتتبعنا تأريخ الإنسان في مختلف الشعوب لرأينا عالم الروح تكون جزء أ هاما من تراثه الديني والأدبي، القدماء قدعرفوا هذه الرحلة، ونسج لهم الخيال كثيرا من الرؤيا التي تدور حول الجحيم والفردوس.....(5)

الأدب اليوناني:

نجد هذه الفكرة عند (هومر) في (الإلياذة) حيث يذكر فيها أحاديث كثيرة عن الحياة الثانية، وعالم الموتى، كما أن فيها إشارة إلى أبواب السماء ونعيم الجنة ووصف لظلمات الجحيم وما إلى ذلك من الأمور المتعلقه بالعالم الموهوم الثاني(٢).

الأدب الفارسي:

وفي الأدب الفارسي القديم ولدى الفرس نجد أصول هذه الفكرة كما أشار إلى ذلك الدكتور رجاء جبر: يتفق الباحثون الأوربيون في الدراسات الإيرانية على أن رائد هذا الموضوع في ايران هو ((إرتاك فيراز نامك)) المكتوب بالفارسية الوسطى، أي كتاب القديس فيراز..... ويرون أنه يمثل الهيكل الأساسي لعدد من الآثار الأدبية التي تنوعت في طريقه تناولها للموضوع، كما في (سير العباد) لسنائي و(منطق الطير) للعطار و(مصباح الأرواح) للكرماني وأخيراً (سبعة الأودية) لبهاء الله..... وحتى فيما يتعلق

بآثار أدبية حديثة مثل جاويد نامه ((كتاب الخلود)) للشاعر الباكستاني محمد إقبال(١٩٣٨)(6).

وفي الأدب العربي كان (المعراج النبوي) أول نص ديني يحكي قصة رحلة الروح إلى العالم الغيبي، ومعراج أبي يزيد البسطامي، ورسالة (حيي بن يقظان) لإبن سينا، و(رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري.(7)

وفي الأدب الأوربي الحديث

نجدجزور هده الفكرةفى الأدب الأوربي و عندالشاعر الإيطالي (دانتے اليغيرى، ت ١٣٢٠م) في (الكوميديا الإلهية) حيث أنه قدم الفكرة هذه في صورة رحلته إلى العالم الغيبي وزيارة الفردوس و جهنم.

وكثر الكلام حول تأثره بالمعري عند النقادين الجدد المعاصرين من العرب والغرب.

وفي الأدب الإنجليزي نجد هذه الفكرة عندالشاعر الإنجليزى (ملتن ت ١٦٧٤م) في (الجنة الضائعة) حيث أنه يزور في هذا الكتاب في أفق وراء المنظور ويتحدث فيه عن ذلك العالم الغيبي البعيد.

فكرة رحلة الروح الخيالية عند المعري وإقبال

إن فكرة رحلة الروح الخيالية و سيرالأفلاك، فكرة قديمة ومشتركة بين الشعوب في التأريخ الإنساني، فنجد ها عند المصريين القدامى وعند اليونان والفرس، وفي الأدب العربي كان (المعراج النبوي) أول نص ديني يحكي قصة رحلة إلى العالم الغيبي، ومعراج أبي يزيد البسطامي، ورسالة حيي بن يقظان لابن سينا، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.(8)

ولعل أول كتاب في موضوع السير في الأفلاك ومواقف الجنة ومناظرها ألفه

أبو الحسن علي بن منصور المعروف بابن القارح فإنه قدم صورة حية لعذاب غير المؤمنين والمنحرفين من الشعراء والخطباء في جهنم. وكان ابن القارح أحد أصحاب أبي العلاء المعري وكانت بينهما صداقة، فرد عليه المعري في كتابه (رسالة الغفران) ففي هذا الكتاب نجد المعري أنه يصل في الجنة سائحا. ويلتقى فيها بعض الشعراء الجاهليين الذين نالوا منايا هم قبل الإسلام. فما كانوا قدعرفوا عن الإسلام شيئا؛ يسألهم المعري في دهشة قائلا: أنتم توفيتم قبل ظهور (الإسلام، فكيف فزتم بالجنة، فيرد عليه كل شاعر ويذكر سبب غفرانه، فلزهيررأيه، ولإمرئ القيس موقف خاص به، حيث أن عبيدابن الأبرص يوجه لنفسه توجيها آخر.

ثم جاء بهذه الفكرةمحي الدين ابن عربي صاحب (الفتوحات المكية) وكانت فكرته عن السير في الأفلاك حلقة وسطانية بين النظر يتين فيوجد في(الفتوهات المكية) بجانب السير في الأفلاك نموذج تمثيلي أيضا.

وهكذا نجد أن الشاعر الإيطالي الشهير (دانتے اليغيري) صاحب الكوميديا الإلهية أنه يقدم فكرة السيرا الخيالي في الأفلاك، ولعل هو أول من قدم هذه الفكرة من بين شعراء وأدباء الأوربيين الجدد، كماكثر الكلام حول تأثيره في هذه الفكره بالأدب العربي الإسلامي عامة، وبرسالة الغفران لأبي العلاء المعري، و الفتوحات المكية لإبن عربي خاصة.

تأثر (دانتے اليغيرى بكتاب (الفتوحات المكية) وأشار إلى ذلك الدكتور محمد إقبال الشاعر الباكستاني في أكثر من موضع، كما اعترف بتأثر (دانتے) بابن عربي أيضا (Ban Garuny Bam)في كتاب له (Medieual Islam).

وكما نجد التأثير الكبير لدى (دانتے) بأبي العلاء المعري في هذه الفكرة، فالتشا به الكبير في الموضوعا المشتركة هو خير دليل على هذا التأثير وهكذا قدكثر الكلام لدى المتخصصين في دراسات إقبال عن مصادر فكرته على العموم أهي أوربية أم

عربية إسلامية؟ وخاصة فكرة السير في الأفلاك، فمن قائل بأنها أوربية البحتة بدليل أنه قدم مكث حينا من الزمن في أوربا معلما ومتعلما، حيث قدتعلم بجا معاتها الشهيرة الكبرى ويثبت من هذا تأثرة بالآداب الأوربية، وخاصة في فكرة السير في الأفلاك بالكوميديا الألهيه لدانتے. وفيفكرة الذاتية (Ego) الشهيرة له كان متأثرا عن (جوئتے) في فكرته (سوبرمان) الشهير.

ومن قائل بأن أساس فكرة إقبال هو الإسلام والأداب الشرقية منها الأدب العربي الإسلامي ولأصحاب هذه الطائفة أدلة كثيرة، ولكن لسنا بحاجة إلى إيراد الكل منها أوالبعض لأننا لسنابصدد تأثر إقبال بالآداب الأوربية أوالشرقيه، بل الموضوع الحقيقي لدراستنا هذه هو تأثر إقبال بأبي العلاء المعري في فكرة السير في الأفلاك، والبحث عن الأوجه المشتركه لديهما في هذه الفكرة.

حين نطالع جميع هذه الرجلات الخيالية إلى عالم السماء، فنجدها متشابة فيما بينها، فالبعض منها تحكى عن الماضي التليد، وأخرى تحدث عن المستقبل الأكيد، وهكذا نجد التأثروالتأثير بين هذه الرحلات الخيالية، وحسبنا ما وجدنا من التشابه العجيب بين المعري وإقبال من إلتقاء هما بالشعراء وإستفسارهما منهم في الأمور الأدبية واللغوية، وعن بعض الأبيات المنسوبة إليهم.

فديوان إقبال المسمى برسالة الخلود (جاويد نامه) تذكرنا (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري التي أملاها في سنة ٤٠٦٣ وكتبها في نثر فني رائع صورفيها رحلته إلى الأعلى وسياحته في الجنة والجهيم وبيّن فيها كيف غفرالله للأدباء والشعراء بوجه خاص، وإن كانوا عصاة ملحدين أوكفارا.

وإقبال في ديوانه (جاويد نامه) رسالة الخلود نجده قدتأثر وبشكل عميق عن (رسالة الغفران) ليس في المضمون، فالمضمون إسلامي لاشك في ذلك، ولكن نجد التأثروالتشابه في الصور الفنية والقالب الفني الجميل، ان رسالة الخلود (جاويد نامه)

معراج فكر إقبال فكذا رسالة الغفران معراج فكر المعري، كلاهما يشتركان في فكرة العروج الخيالة إلى السماء، فيهما يصعدان إلى الأعلى، ويقومان لسياحة الجنة والنار، ويلتقيان في عالم الأرواح بكبار الشخصيات اللذين قدماتوا وكانوان معروفين في زمانهم.

وإقبال في ديوانه رسالة الخلود (جاويد نامه) يحدثنا عن الدين والفلسفة والسياسة وعن الشعراء والأدباء، فكذا نجد المعري في (رسالة الغفران) فميدانه الدين والفلسفة والأدب.

وهكذا نجد التشابه الكبير والدقيق بين إقبال والمعري في هذه الرحلة الخيالية إلى عالم السماء، وحسبنا أن نذكر التشابه العجيب بينهما، إذ أن المعري في سفره إلى الجنة يلتقي الشعراء الجاهليين ويستفسرهم في الأمور الأدبية اللغوية، وعن بعض الأبيات المنسوبة إليهم.

ومن بينهم يلتقى بالشاعر الجاهلي (أعشي) ويسأله في حيرة عن دخوله الجنة، قائلاً.

أخبرني كيف كان خلاصک من النار وسلامتک من قبيح الشنار.....فذهب علي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يارسول الله، هذا أعشى قيس، قدروي مدحه فيک، وشهد أنک نبي مرسل، فقال: هلا جاء ني في الدار السابقة؟ فقال علي: قدجاء، ولكن صدته قريش وحبه للخمر، فشفع لي، فادخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمراً فقرت عينا ي بذلک....(9)

وهكذا نجد (إقبال) الشاعر في سفره إلى الجنة، فإنه يلتقى بالشاعر الهندوكي الشهير في الجنة، فيسأله في حيرة سبب دخوله الجنة مع أنه لم يشهد بالشهادتين.

من خلال دراستنا هذه، قدوجدنا التشابه العجيب بين كلاالشاعرين في هذه الرحلة الروحية إلى العالم العلوي في الفكرة والأسلوب، حتى في المضمون، وترتيب

السفر، والسير في الأفلاك، وذلك لأن المعري في نزهته للجنة يلتقي فيها من الشعراء الجاهلين، وأما إقبال فإنه يجد الشاعر الهندو كي (غير المسلم) في الجنة.

غير أن المعري كان متشككا، ينفرمن الشدة في الدين، وإذا كانت له عقيدة في الإله فما كانت مجرد إله ظالم. ويقال عنه بأنه هاجم الأنبياء عامة ولم يأمن لمسلكهم، ووصفه بأنه مسلك زور ورياء، ونشر الشقاء والبغضاء بين البشر ففي ذلك كان يقول:

قد حجب النور والضياء وإنما ديننا رياء

(10)

كمايقول:

وإذا ما سألت أصحاب دين غيروابالقياس مارتبوه

لايدينون بالعقول ولكن بأباطيل زحرف كذبوه

(11)

مع أن (إقبال) كان رجلادينيا، وقدسجل دعوة الإسلام إلى التوحيد في غير عمل من أعماله الأدبية مستلهماً من القرآن العظيم انطلاقا إلى رفعة ومجد فيقول ما ترجمته:

توحيد الله لنا نور اعددنا الروح له سكنا

والتوحيد يعنى الإيمان بأن الله واحد، ويحمل هذا المعنى معاني القوة للواحد والغنى والعظمة....، وهو معنى فطري في النفس مصداقا لقوله تعالىٰ:

"وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهد هم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوايوم القيامة إنا كنا عن هذاغافلين(13).

ويرى (إقبال) أن الكمال فيرسالة الإسلام أن تجمع الناس على كتاب واحد هو القرآن الكريم لتتحقق وحدة الشريعة إلى وحدة العقيدة فيقول ما ترجمته:

تهجر القرآن؟ أصبحت الأذلاء وبلوم الدهر أمسيت المملا

قل إلام في الثرى تبغى الوطن السماء اقصد وأرجا فارقن.(14)

ويقول:

كل من يعبد في الدنيا الحطاما عشق المال كما خاف الحماما

ماانتشى ماذاق شيئا من سرور وكتاب الدين في جوف القبور. (15)

مع ذلك أنه يوجد في رسالة الخلود (جاويد نامه) اتساع الفكرة مثل مايوجد في (رسالة الغفران)، ولم يكن (إقبال) متشككا مثل المعري، لكنه لم يرض باد خال جهنم أحداً من الأقوام، ولا أحد رؤسائها انطلاقا من الشدة في المذهب حيث أن (إقبال) في ديوانه هذا يقدم منظر دماء بحر الزحل، ويعرض (مير جعفر) و (مير صادق)(16) نموذ جا يعذب في نارجهنم، ولم يجعل أي متفلسف ولا أحدا من رؤساء القوم شريكا معهم في العذاب ولوكان غير مسلم.

كان (مير جعفر) و (مير صادق) ناكثى العهد، وكانا قد أراقا الدماء البرينة لأفراد قومهم لنيل شهواتهم الخاصة، وضحوا في سبيلها موطنهم، وذاق الملايين بل البلايين من الناس وبال أمرهما حيث وقعوا في قعر الأسرو العبودية، وقال إقبال ينبه فيه إلى ذلك:

اين جهاں بے ابتداء بے انتها است بندۂ غدار لامولی کجا ست(17)

سواء كان (جعفر) ذاك الزمان أو (صادق) هذا العصر فلا مولى لهم، ولايكون لهم مولى أبدا.

ثم إن مايصور (إقبال) الجاهليين من العرب في (جاويد نامة) شئي جدير بالذكر،وفي مطلع المنظومة (طاسين محمد) من هذا الديوان، ذكرفيها ماينوح روح أبى جهل في الحرم المكي ويبكى عليه، بأن العرب كانوا ينقصون من أهمية في لغات الآخرين ويحكى لنا إقبال القصة بتمامها في صورة الأشعار.

وفي هذه الأبيات قد ورد ذكر الشعراء والأدباء من العرب مثل ما ذكر هم

المعري في (رسالة الغفران) فجاء ذكر سحبان بن وائل الذى كان خطيبا بارعا للعرب، وقول (إقبال): (إن كنت أزمعت الفراق) تذكرنا بمعلقة امرئ القيس التى يقول فيها: أفاطمة مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملى (18)

قدتضمن إقبال بتمام الشطر من البيت للشاعر العربي الذي قيل فيه بأنه أشعر الشعراء وقائدهم، وكماجاء في هذه الأبيات ذكر زهير بن أبي سلمى الذي كان أحد فحول الشعراء المعدودين في العصر الجاهلي.

فكم وجدنا من التشابه العجيب بين كلاالشاعرين في هذه الرحلة الروحيه إلى العالم العلوي في الفكرة والأسلوب، حتى في المضمون وترتيب السفر، والسير في الأفلاك. وذلك أن المعري في نزهته للجنة يلتقى فيها الشعراء الجاهلين وأما (إقبال) فإنه يجد الشاعر الهندوكي (غير المسلم) في الجنة.

وبإمكاننا أن نقول أن هذا دليل على أن كلاهما كانا يؤمنان بسعة رحمة الرحمن. لأن كل واحد منهما كان يرجو من المولى الكريم المغفرة ودخول الجنة لمن له عمل صالح ولو كان على غير دين الإسلام.

على أن نقط الإلتقاء في هذه الرحلة العلوية التصورية أكثر بكثير من نقط الإفتراق، وهي اللغة والزمان لأن المعري كتب (رسالة الغفران) في النثرو باللغة العربية، وفي سنة ٤٢٤هـ. وأما (إقبال) فإنه قد نظم رسالة الخلود (جاويد نامة) بالفارسية، وفي عام ١٩٣٥م.

وستكون المقارنة بين كلتا الرسالتين من حيث الموضوع والغاية والخيال. والنتائج التي توصلت اليها كل من الأديبين من خلال رحلتهما الخيالية إلى الدار الآخرة.

أما الموضوع فنجد كلاهما متفقين في الفكرة الأساسية وهي العروج إلى السماء، فرسالة الغفران هي رحلة خيالية مدهشة إلى الدارالآخرة. إلى الجنة ثم إلى

الجحيم، ورسالة الخلود (جاويد نامة) لإقبال هي نفس الشئ. والمعري قداتخذ له رفيقا في الرحلة يحاوره هو ابن القارح وإقبال قد اتخذ الرومي دليلا له في هذه الرحلة، ورحلة المعري تقوم على حوارات مع شعراء وأدباء ورحلة إقبال كذلك تقوم على حوارات مع شعراء وأدباء وعظماء الفلاسفة.

ويقول حنا الفاخوري في مضمونها: رسالة كتبها صاحبها جوابا على رسالة وجهها إليه أحد معاصريه في حلب يدعى علي بن منصور ويعرف بابن القارح، سأل فيها أبا العلاء عن الزندقة والزنادقة، فأجابه المعرى برسالة أيضا ضمنها مهارته في تقليب الكلام، وأظهر فيها من معارفه الواسعة مايعجب.(19)

أما موضوع رسالة الخلود(جاويد نامه) لإقبال فيقول الناقد الباكستاني الأستاذ عبدالواحد: في مقدورنا أن نعد (جاويد نامه) أو (رسالة الخلود) أعظم أعمال إقبال، إنها كوميديا إلهية شرقية، وقد عبرفيها بروعة عن أفكاره المتعلقة بمختلف القضايا التي تجابه الناس في حياتهم اليومية..... وبينما تتسم الفكرة الرئيسية في المنظومة بالحيوية والإبداع، ويقدم إقبال فيها تفسيرا لحقائق الخلود ويناقش فيها أكثر القضايا حساسية وتأثيرا بالنسبة للإنسان فإنه يفعل ذلك كله بطريقة فنية رائعةللغاية، لدرجة أن هذه الملحمة العظيمة لا تشتمل على بيت واحد أضرت فيه عتادة الفكر بروعة الشعر.(20)

ورسالة الغفران موزعة إلى قسمين: أولهما رواية الغفران، والآخر الرد على ابن القارح. أما رواية الغفران فقصة خيالية تخيل فيها أبو العلاء أن ابن القارح قدغفرله يوم القيامة، فأدخل الجنة، فراح يطوف في جنانها وينعم بطيباتها، ويجتمع بطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام ويسألهم كيف نالوا الغفران. ومن ذلك اسم الرسالة. ويعقد معهم المجالس الأدبية، ثم ينتقل إلى جنة العفاريت فإلى الحجيم، ومن الجحيم يعود إلى الجنة.

وأما الرد على ابن القارح فيتضمن تحليلاً لبدع العصر ومذاهبه، وبحثا في الأشخاص الذين جاء ابن القارح على ذكرهم وجعلهم في جملة الزنادقة والملحدين، فيواقفه أبو العلاء في بعضهم ويدافع عن بعضهم الآخر.....وهكذا استطاع أبو العلاء في رسالة الغفران أن يظهر براعته في تقليب العبارة والألفاظ، وأن ينشر أفكاره وآراءه .(21)

و نجد إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) أنه يقدم آراءه الفلسفية والقضايا التي تواجهها في مجتمعه في صورة رائعة؛ كما يقول الأستاذ محمد سعيد في هذا الصدد: وتتميز جاويد نامه أو رسالة الخلود بأنها ليست. كباقي دواوين إقبال. مجرد مقطوعات متفرقة في موضوعات شتى، وإنما هي قصة متكاملة موحدة الأجزاء يربطها خيط واحد وتتدفق فيها الأحداث والأفكار في مجرى واحد وتنتهي جميعا إلى غاية واحدة وهذا لانجده في دواوين إقبال الأخرى.(22)

نجد المعري في رحلته هذه أن يظهر بمظهر العالم الواسع الثقافة، العميق التفكير. وهكذا استطاع أن يكون ناقدا لغويا وتاريخيا وأدبيا ومذهبيا.(23)

ورسالة الخلود (جاويد نامه) لإقبال تشتمل على الموضوعات الآتية:

أ. ماقبل العروج:

في هذه المرحلة يتجه بالدعا إلى الله أن يعتقه من أسر الزمان والمكان لكى ينطلق متجها إلى هدفه وهو الخلود.

ب. العروج في الأفلاك، وهو كالتالي:

1. فلك القمر
2. عطارد
3. الزهرة

4. المريخ
5. المتشري
6. زحل

ج. ماوراء الأفلاک:

في هذه المراحل الثلاث هي ماقبل العروج، والعروج في الأفلاک، وما وراء الأفلاک. ويقوم إقبال بالحوار مع الزعماء والشعراء والأدباء وبالدعاء في مرحلتين الأولى والثانية، وفي المرحلة الثالثة وهي ماوراء الأفلاک يتم بها اللقاء مع الله تعالىٰ.

والغرض الأساسي عنده من رسالة الخلود هذه هو إبلاغ رسالته، ومن خلال هذه الرسالة كان يقصد إيقاظ أمته من سباتها الطويل، وخاصة الجيل الناشئ الجديد لكي يكونوا أقوياء ويغلبوا على جميع ما في هذا الكون، وما وراء المنظور، ويقصد من هذه الرحلة الخيالية الجهد المتواصل إلى الخير الكل والحق المبين ثم الغرق في الحب أوالجمال الذي هو أساس هدا الكون، كما أنه يريد من هذه الرحلة السماوية الوصول إلى المكان العالي والدرجات العلى حتى الوصول بها على المعراج الذيهو من مزايا البشر، ثم يحصل بهذا العروج القوة التى يقف بها على وجه الموت وينا فسه.

وكذلک يهدف إقبال من هذه الفكرة تقديم ما عنده من النصائح إلى الجيل الجديد على لسان الصلحاء والسلاطين والعظماء، ويطلعه على مكايد أوربا، ويخبره معاً على الجوهر الذي وصلت أوربابها إلى هذا التقدم والرقي.

وهكذا رحلة المعري الخيالية تقوم على حوارات مع شعراء وأدباء وتشتمل على الأمور الدينية والسياسية والإجتماعية. كما يقول حنا الفاخوري: تناول المعري في نقده أمورا كثيرة نقتصر منها على الناحية الأدبية وما يرجع إليها أويتصل بها.(24)

وهكذا ينتقل من أديب إلى أديب ويظهر أثر الدين الإسلامي في الأدب وحياة الأدباء، ويوضح بعض الشعراء وقد جعلهم الرواة والنقاد في غير محلهم، ويبين عادة

الشعراء الأقدمين في المنافرة وسعي كل منهم في جعل نفسه فوق غيره.....(25)

ويتناول أبوالعلاء الناحية الإجتماعية عند بعض الشعراء ولاسيما الإسلاميين والعباسيين، فيأخذ عليهم خمريا تهم ومجونهم....

و نرى في هذه الرسالة أن أبا العلاء تناول في نقده المعلومات العلمية والأدبية التي تتعلق بأخبار الشعراء الذين سبقوه، كما تناول نقد المعتقدات الشائعة في عصره، وعادات القوم وأخلاقهم.(26).

.....وكان شأنه في كل موضوع وكل موقف، ساخرا متهكماً، لاذع السخر قارص الكلام، يلتزم الغريب والجناس والأمثال والإشارات التأريخية، بل يغرب مااستطاع الإغراب، ويرمزما استطاع الرمز، ويحاور ما استطاع الحوار، في طرافة ومهارة، وهو أبداً واقف وراء كلامه، ينظر بعين البصيرة إلى السهام المتطايرة، وإلى مفعولها في الناس والمجتمع. وهو عالم أن نقده لمحات وتلميحات، ولكن وراء اللمحات والتلميحات شخصية قوية بعيدة المرامي والأهداف.....(27)

وفي الأخير إذا نقوم بالمقارنة بين تلك الرسالتين (رسالة الغفران) للمعرى، ورسالة الخلود (جاويد نامه) لإقبال، نجد التشابه الكبير في الموضوعات، وخاصة في الفكرة، والخطة العامة وكثير من المواقف.

بالرغم من الإختلاف في لغة الرسالتين إلا أنه لايمكن إخفاء تأثر إقبال برسالة الغفران للمعري، والعامل الحاسم الذي يجعلنا نجزم باقتباس إقبال من رسالة الغفران هو التشابه الكبير بين العملين، مع العلم بالطبع أن المعري كتب رسالته قبل إقبال بقرون عديدة، وإن اختلف ابداع كل منهم لمؤلفه سواء كان ابداعا اصيلا كما للمعري، أومنقولا بتصرف كما مع إقبال. حسب قول بعض النقاد. فرسالة الغفران هي رحلة خياليه مدهشة إلى الدارالآخرة، إلى الجنة ثم إلى الجحيم، ورسالة الخلود (جاويد نامه) لإقبال هو نفس الشئ إلا بعض الفروق في الترتيب والنتائج. التى نشير اليها بعد قليل.

والمعري اتخذ له رفيقا في الرحلة يحاوره هو ابن القارح، وإقبال اتخذ (الرومي) دليلا له في هذه الرحلة، ورحلة المعري تقوم على حوارات مع شعراء وأدباء، ورحله إقبال كذلك تقوم على حوارات مع الشعراء والأدباء والعظماء، إلا أن المعري قد غلبت عنده الجهات الأدبية واللغوية وإقبال كثر عنده الكلام حول القضايا الإجتماعية والدينية والنصائح العامة.

وكما نجد الإختلاف عندهما في النتيجة من هاتين الرحلتين المتماثلتين في الفكرة الأساسية يكفى بناهنا الإشارة إلى ما قاله الدكتور طه حسين في هذا الصدد: والغريب أن الرجلين اشتركا في هذا التفكير المتصل بالملأ الأعلى، وكلاهما فكر في هذه المعجزة التى جاء ت في القرآن، وهي معجزة الإسراء، فكر في هذا كلاهما وحاول كلاهما أن يسري كما أسرى بالنبي.

فأبوا العلا فكر في الجنة وفكر في النار وحرص على أن يسيح في الجنة والنار، وأن يكون متفرجاً، وأن يتحدث إلى الناس عن الجنة والنار، وعمايكون في الجنة والنار، فألف (رسالة الفغران).

وصاحبنا الذي نذكره اليوم مكبرين له مجلين له أبى هو أيضا الا أن يعرج في السماء كما عرج محمد ﷺ. ولكن كلا الرجلين عرجا إلى السماء في خيالهما. وإقبال يزور السماوات ويتخذ له من هذه الزيارة دليلا من المتصوفة هو جلال الدين الرومي، فيزور القمر ويزور المريخ ويزور كواكب كثيرة....(28)

وفي آخرا المطاف يستنتج من هذه الرحلة شخصية كل من أبي العلاء و محمد إقبال ويذكر أوجه التباين والإختلاف بين كلا الشاعرين عندما يقول: مهما يكن من شئ فقدطوف إقبال في السماوات كما طوف فيها أبوالعلاء. لكن النتيجة لها تين الزيارتين متناقضة عند الرجلين أعظم التناقض، فأما أبوالعلاء فعاد من زيارته للجنان والنار ساخراً منكراً يوشك أن يخرج عن الدين. وأما إقبال فعاد من زيارته مؤمنا متعظا معتبراً يريد أن

يملأ الدنيا موعظة وعبرة بعد هذه الزيارة إلى هذه السماوات.(29)

ولعل ليس من نافلة القول أن نشير إلى ماذكره الدكتور محمد السعيد جمال الدين من الفروق بين الرحلتين قائلا: ونضيف إلى هذا فروقاً أساسية في نص الرسالتين، فأبو العلاء كان يرى مايراه في الجنة بعين الحرمان ويعرض في نفس الوقت بضاعته من العلم واللغة والفن... وماكان دأب إقبال في (رسالة الخلود) فقد أعرض عن كل مارآه باغياً وجه الله تعالىٰ ولم يكن عرض بضاعته من العلم أواللغة في حد ذاته وإنما كان مجرد وسيلة لإبلاغ رسالته(30).

الحواشي

١. الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم): حنا الفاخوری، ص٨٤٣

٢. راجع: اردو دائره معارف اسلاميه. ج٣. ص٧

٣. رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتے: دكتور رجاء عبدالمنعم جبر،ص٤

٤. (الغفران) دراسة نقدية: دكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئی، ص٣١١،٣١٢

٥. رحلة الروح، ص٧

٦. رحلة الروح، ص٨

٧. المرجع السابق، ص٣

٨. للمزيد راجع الكتاب: رحلة الروح بين ابن سينا وسنائی ودانتے: للدكتور رجاء عبدالمنعم جبر، ص٣، ومابعدها.

٩. رسالة الغفران: لأبي العلاء، ص٦٧. ٧٠.

١٠. ديوان لزوم مالايلزم: لأبي العلاء المعري، ج١. ص٥٠

١١. المصدر السابق، ج٢. ص٥٧٢

١٢. كليات إقبال: محمدإقبال، ص٣١٠

١٣. سورة الأعراف: رقم الأية ١٧٢

١٤. الأعمال الكاملة لإقبال: د.حازم محفوظ، ص٢١٩.

١٥. المصدر السابق، ص٤١٣

١٦. من خونة الأمه الإسلامية فی الهند في عهدا لسلطان تيبو.

١٧. كليات إقبال، ص٥٤

١٨. معلقه إمرؤالقيس. ص٥٤

١٩. الجامع في تأريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري، ص٨٤٦.

٢٠. الأدب المقارن دراسات تطبيقية في الأدبين العربي الفارسي: د. محمد سعيد جمال الدين. ص ٦٠. ٦١

٢١. الجامع في تأريخ الأدب العربي. ص٨٤٧

٢٢. الأدب المقارن. ص٦٠.

٢٣. الجامع في تأريخ الأدب العربي، ص٨٤٧.

٢٤. المرجع السابق، ص ٨٤٨.

٢٥. المرجع السابق: ص٨٤٨

٢٦. المرجع السابق: ص٨٤٨

٢٧. المرجع السابق: ص٨٤٩

٢٨. محمد إقبال. ص٢٧

٢٩. المرجع السابق. ص٢٩

٣٠. الأدب المقارن: ص١٠٥.

المصادر والمراجع

☆ الأعمال الكاملة: د.طه حسين، دار المعارف، ط الثامنة، مصر ١٩٩٩م.

☆ الإنصاف والتحري: ابن النديم، مطبعة الهاشمية، ط الثانية، دمشق ١٩٦٢م.

☆ أوج التحرى عن حيثية المعري (تحقيق ابراهيم الكيلاني) مطبعة الترقى، دمشق ١٩٦٦م.

☆ تعريف القدماء بأبي العلا: إشراف الدكتور طه حسين، (تحقيق مصطفى السقا و جماعة) الدارالقومية للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٥م.

☆ حكيم المعرة: د.عمر فروح، مطبعة الكشاف، بيروت ١٩٤٨م.

☆ رأي في أبي العلاء: أمين الخولي، دارمكتبة الحياة، بيروت، بدون.

☆ رسالة الغفران: أبوا العلاء المعري، دارالكتاب العربى ط السادسة، مصر، ١٩٧٧م.

☆ الفصول والغايات: أبوالعلاء المعري. (تحقيق محمود حسن زناتى) الهيئة المصرية العامة لكتاب، مصر ١٩٧٧م.

☆ رحلة الروح بين ابن سينا و سنائي ودانتے: دكتور رجاء عبدالمنعم جبر، دارالمعارف، ط الثانية. ١٩٨٦م.

☆ الغفران دراسة نقدية: د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئى، دارالمعارف، بيروت ١٩٩٥م.

☆ ديوان لزوم مالايلزم: أبوالعلاء المعري، (تحقيق وتقديم د. وحيد كباية وحسن حمد) دارالكتاب العربي، بيروت ط الأولى١٩٩٦م.

☆ رحلة إلى الدارالآخرة مع المعرى ودانتے: عبدالقادر محمود. مركز الكتاب للنشر، بيروت بدون.

☆ في السماء: د. حسين مجيب المصرى، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، بدون.

☆ الأدب المقارن دراسات تطبيقية في الأدبين العربي والفارسي: د. محمد السعيد جمال الدين. دار ثابت للنشر والتوازيع، القاهرة ط الأولى، ١٤١٠هـ. ١٩٨٩م.

☆ الأعمال الكاملة لإقبال: د. حازم محفوظ. دارالآفاق العربية، القاهرة، ط الألى، ١٤٢٦هـ.٢٠٠٥م.

☆ العلامة محمد إقبال حياته وآثاره: د. أحمد معوض. هيئة الكتاب المصرية، ط الأولى، مصر، بدون.

☆ كليات إقبال (الفارسية) د. محمد إقبال. غلام على پبلشرز، لاهور، ط الثانية ١٩٧٥م.

☆ كليات إقبال (الأردية): د. محمد إقبال، غلام على پبلشرز، لاهور ط الثانية ١٩٧٣م.

☆ تجديد التفكير الديني في الإسلام: د. محمد إقبال (ترجمه عباس محمود) مكتبة الأنجلو المصرية، بدون.

☆ رسالة الخلود (جاويد نامه) د. حسين مجيب المصري، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط الأولى ١٩٩٨م.

☆ محمد إقبال سيرته وشعره وفلسفته: د. عبدالوهاب عزام دارالكتاب العربي، بيروت ط الثالثة ١٩٧٢م.

☆ ديوان الأسرار والرموز: د. عبدالوهاب عزام. دارالكتاب العربي، ط الثانية. بيروت ١٩٧٥م.

☆ سفرنامه إقبال: محمد حمزة فاروقي: بزم إقبال لاهور، ط الثانية ١٩٨٤م.

☆ اقبال الشاعر الثائر: نجيب الكيلاني. مؤسسة الرسالة، دمشق، ط الأولى ١٩٨٠م.

☆ شرح جاويد نامه: يوسف سليم چشتي، عشرت پبليكيشن هاوس، لاهور ط الثانية، بدون.